عبد الله بن أبي عتيق

عبد الله بن أبي عتيق

هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي المدني.

وأمه رميثة بنت الحارث بن حذيفة بن مالك بن ربيعة من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة وأم ابنه محمد بن عبد الرحمن أميمة بنت عدي بن قيس بن حذافة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب.

كان أمرأ صالحا، وكانت فيه دعابة، ويعد في الطبقة الثانية من تابعي أهل المدينة، سمع الحديث من أم المؤمنين عائشة وعامر بن سعد بن أبي وقاص روى عنه ابناه محمد وعبد الرحمن ومحمد بن إسحاق وأبو حزرة يعقوب بن مجاهد القاص وخالد بن سعد وشريك بن عبد الله بن أبي نمر.

وقال موسى بن عقبة ما نعلم أربعة في الإسلام أدركوا هم وأبناؤهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا هؤلاء الأربعة أبي قحافة وأبي بكر ابنه وابن ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وأبو عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر واسم أبي عتيق محمد.

وعاش مائة سنة ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ومات سنة خمس وسبعين وأربعمائة [1].

مواقف من حياته :

يوم البغلة:

حدث عبد الله بن كثير بن جعفر قال اقتتل غلمان عبد الله بن العباس

(1) ترجمته وأخباره في نسب قريش للمصعب الزبيري، ص 278، تهذيب الكمال، 10 / 500، تهذيب التهذيب، 3 / 257، الوافي بالوفيات، 17 / 425، المعارف، ص 233، تاريخ دمشق، 32 /236، ابن الأثير، أسد الغابة، 1212/1، الإستيعاب في معرفة الأصحاب، 428/1.

وغلمان عائشة، فأخبرت عائشة بذلك فخرجت في هودج على بغلة لها فلقيها ابن أبي عتيق فقال: أي أمي جعلني الله فداك أين تريدين قالت: بلغني أن غلماني وغلمان ابن عباس اقتتلوا، فركبت لأصلح بينهم، فقال: يعتق ما يملك أن لم ترجعي، فقالت: يا بني ما حملك، وقال ابن النقور: ما الذي حملك على هذا؟ قال: ما انقضى منا يوم الجمل حتى تريدين أن تأتينا بيوم البغلة[1].

قال الزبير: حدثني أبي أن ابن أبي عتيق دخل على أم المؤمنين عائشة، وهو مشتمل على قرد، فقال لها: يا أماه بركي في فقالت: بارك الله فيك، قال: وفيما معي قالت وفيما معك، فكشف لها عنه، فغضبت، وقالت: لقد هممت أن ادعو عليك بدعوة تدخل معك قبرك.

وحدث مصعب بن عثمان وغيره أن ابن أبي عتيق دخل على عائشة في مرضها الذي ماتت فيه فقال لها كيف تجدينك يا أمي جعلني الله فداك: قالت: أجدني يا بني ذاهبة، قال: فلا إذا [2].

قد قضيناه عنك:

كان لرجل على ابن أبي عتيق دين فتقاضاه فلما ألح عليه، قال: ائتني العشية في مجلس القلادة، وكان مجلس القلادة مجلسا لقريش يتذاكرون الفقه وأصناف العلوم، فاسألني عن بيت قريش فأتاه الغريم في المجلس، فقال: أنا تلاحينا في بيت قريش ورضيناك حكما، فقال: اعفني من الكلام في هذا، قال: لا بد من أن تقول، قال: فإن بيت قريش آل حرب بن أمية، قال: ثم قال: ثم آل أبي العاص، قال وعبد الله بن عباس حاضر، فقال الرجل: فأين بنو عبد المطلب فقال لم أظنك تسألني عن بيت لملائكة ومهبط جبريل إنما ظننتك تسألني عن بيت الآدميين فأما إذا صرت إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد كل شهيد وعم رسول الله صلى

(1) تاريخ دمشق، 32 /240.
(2) تاريخ دمشق، 32 /241.

الله عليه وسلم والطيار في الجنة مع الملائكة، فمن يسامي هؤلاء، وأي فخر إلا وهو ينقطع دونهم، قال: فجلا عن ابن عباس ما كان فيه فدعاه بعدما ما قام الناس، فقال: ألك حاجة، قال: نعم علي دين، فقال: قد قضيناه عنك.صلى الله عليه وسلم

هل له من حاجة:

عن مجالد قال دخل ابن أبي عتيق على الحسين بن علي وعنده جماعة فقعد عنده فجاء غريم لأبن أبي عتيق يتقاضاه فجلس مع القوم فقال غريم ابن أبي عتيق من أشرف العرب قال: يا جاهل وهل يشك في ذلك حرب بن أمية لا تصدر قريش إلا عن رأيه، قال: فاستحيا الرجل من الحسن، ووجد الحسن في نفسه فقال له الرجل: فأين عبد المطلب، قال: يا جاهل تذكر عبد المطلب مع الناس اذكر جبريل وميكائيل وإسرافيل وعبد المطلب، قال: فبتسم الحسن وقال: هل له من حاجة.

بغلة الحسن تعجبني:

قال مروان بن الحكم: بغلة الحسن تعجبني، فقال له ابن أبي عتيق: فإن أخذتها لك تقضي لي أربعين حاجة، قال: نعم، قال: فإذا كان العشية فأذن للناس، فإني سأذكر أولية قريش إذا جلس الحسن ولا أذكر من ناحية الحسن شيئا، فقل: ما لك لا تذكر أبا محمد، قال: فلما كان عشية أذن للناس، فلما أخذوا مجالسهم أفاض ابن أبي عتيق مع مروان يذكر أولية قريش وشرفهم، فقال له مروان: أراك تذكر أولية قريش وشرفهم ولا أسمعك تذكر أبا محمد وحظه من ذلك الحظ الوافر، فقال له ابن أبي عتيق: إنا كنا في ذكر الأشراف، ولو كنا في ذكر الأنبياء لذكرنا أبا محمد، فلما قام الحسن قام مع ابن أبي عتيق، فلما خرج أضحك الحسن، وأقبل عليه فقال: ألك حاجة؟ قال: نعم، البغلة، قال: هي لك فأعطاها مروان.

حوض القيامة:

قال ابن عروة بن الزبير قد اشتقت إلى حديث ابن أبي عتيق وأرسل إليه يقول: إني قد اشتقت إلى حديثك، فأحب أن تزورني، قال: فقال: ابن أبي عتيق الحوض، فرجع الرسول إلى عبد الله بن عروة فأخبره، فقال: هذا موعد مغمس، ارجع إليه فاسأله أي حوض فرجع إليه، فقال له: يقول لك أي حوض؟ قال: حوض القيامة، فذكر ذلك الرسول لعبد الله بن عروة، فضحك، وقال: قل له: أتعدنا حوضا لا ترده.

لها أنف ظالمة:

جلس ابن أبي عتيق مع أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في مجلس القضاء، فخاصمت إلى أبي بكر امرأة منتقبة لها عين حسنة حوراء، فأقبل أبو بكر على ابن أبي عتيق فقال ما تقول في أمر هذه، فقال لها: عين مظلومة إلى أن طالت بها الخصومة، فأذلقتها، فكشفت وجهها، فإذا أنفها ضخم قبيح، فقال له أبو بكر: ما تقول في أمرها، قال: لها أنف ظالمة، وأبو بكر بن محمد إذاك يلي عمل المدينة وقضاءها[1].

نجاح الصلح الذي سعى به ابن أبي عتيق :

أخبر بلال مولى ابن أبي عتيق قال: أنشد ابن أبي عتيق قول عمر:

مَنْ رسولي إلى الثريّا فإني ::: ضقتُ ذَرْعاً بهجرها والكتابِ

فقال ابن أبي عتيق: إياي أراد وبي نوه لا جرم والله لا أذوق أكلا حتى أشخص، فأصلح بينهما، ونهض ونهضت معه، فجاء إلى قوم من بني الديل بن بكر لم تكن تفارقهم، نجائب لهم فره يكرهونها، فاكترى منهم راحلتين، وأغلى لهم فقلت له: استوضعهم أو دعني أماكسهم، فقد اشتطوا عليك، فقال: ويحك أما علمت أن المكاس ليس من أخلاق الكرام، ثم ركب إحداهما، وركبت الأخرى، فسار سيرا شديدا، فقلت: أبق على

(1) تاريخ دمشق، 32 /244.

نفسك فإن ما تريد ليس يفوتك فقال ويحك:

(أُبَادِرُ حَبْلَ الوُدّ أن يَتَقَضَّبا..)

وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا، فقدمنا مكة ليلا غير محرمين فدق على عمر بابه، فخرج إليه وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته، فقال له: اركب أصلح بينك وبين الثريا، فأنا رسولك الذي سألت عنه، فركب معنا وقدمنا الطائف، وقد كان عمر أرضى أم نوفل، فكانت تطلب لها الحيل لإصلاحها فلا يمكنها فقال ابن أبي عتيق للثريا، هذا عمر قد جشمني السفر من المدينة إليك، فجئتك به معترفا لك بذنب، لم يجنه معتذرا إليك من إساءته إليك فدعيني من التعداد والترداد، فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله، وكررنا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبي عتيق حتى رحل وزاد عمر في أبياته:

(أَزْهَقَتْ أُمُّ نوفلٍ إذ دَعَتْها ::: مُهْجَتِي ما لِقَاتِلي مِنْ مَتَابِ)

(حين قالتْ لها أَجِيبِي فقالتْ ::: مَنْ دعاني قالت أبو الخَطَّابِ)

(فاستجابتْ عند الدعاء كَما لبَّى ::: رجالٌ يَرْجُون حسنَ الثوابِ)

قال الزبير: وما دعتها أم نوفل إلا لابن أبي عتيق، ولو دعتها لعمر ما أجابت، قال: وسألت عمي عن أم نوفل، فقال: هي أم ولد عبد الله بن الحارث أبي الثريا وسألته عن قوله:

(كما لبَّى رجال يرجون حسنَ الثوابِ..)

فقال: كررت في التلبية كما يفعل المحرم فقالت لبيك لبيك [1].

ثم عودي إلى ما عودكِ اللهُ:

ومن طريف أخباره أن عائشة بنت طلحة عتبت على مصعب بن الزبير فهجرته، فقال مصعبُ: هذه عشرة آلاف درهم لمن احتال لي أن

(1) الأغاني، 1 /224.

تكلمني، فقال له ابن أبي عتيق: عدلِ المال، ثم صار إلى عائشة، فجعل يستعتبها لمصعب، فقالت والله ما عزمي أن أكلمه أبداً. فلما رأى جدها قال لها. يا بنتَ عم، إنه قد ضمن لي إن كلمته عشرةَ آلاف درهمٍ، فكلميه حتى آخذها، ثم عودي إلى ما عودكِ اللهُ.

أو ما تدري ما حدث؟:

ومن طريف أخباره أن عثمان بن حيان المري لما دخل المدينة والياً عليها اجتمع الأشراف عليه من قريش والأنصار، فقالوا له: إنك لا تعمل عملاً أجدى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء، ففعل، وأجلهم ثلاثاً، فقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة، فحط رحله بباب سلامة الزرقاء، وقال لها: بدأت بكِ قبل أن أصير إلى منزلي، فقالت: أو ما تدري ما حدث؟ وأخبرته الخبر، فقال: أقيمي إلى السحر حتى ألقاه، فقالت: إنا نخاف ألا تغني شيئاً وتنالنا شدة، فقال: إنه لا بأس عليك، ثم مضى إلى عثمان فاستأذن عليه، فأخبره أن أحب ما أقدمه عليه حب التسليم عليه، وقال له: إن من أفضل ما عملت به تحريم الغناء والرثاء. قال: إن أهلك أشاروا علي بذلك. قال: فإنك قد وفقت، ولكني رسول امرأةٍ إليك تقول: قد كانت هذه صناعتي فتبت إلى الله منها، وأنا أسألك أيها الأمير ألا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عثمان: إذن أدعها لك، قال: إذن لا يدعها الناس، ولكن تدعو بها فتنظرُ إليها، فإن كانت ممن يترك تركتها، قال: فادعُ بها، قال: فأمرها ابن أبي عتيق فتقشفت، وأخذت سبحةً في يدها، وصارت إليه، وحدثته عن مآثر آبائه، ففكهَ لها، فقال لها ابن أبي عتيق: اقرئي للأمير، ففعلت، فأعجب بذاك. فقال لها: فاحدي للأمير، فحركه حداؤها، ثم قال لها: غيري للأمير، فجعل يعجب بذلك عثمانُ، فقال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سمعتها في صناعتها! فقال: قل لها فلتقل، فأمرها فتغنت:

سددن خصاص الخيم لما دخلنه ::: بكل لبانٍ واضحٍ وجبين

فنزل عثمان بن حيان عن سريره حتى جلس بين يديها، ثم قال: لا والله، ما مثلك يخرجُ عن المدينة! فقال له ابن ابي عتيق: إذن يقول الناس أذنَ لسلامة في المقام ومنع غيرها! فقال له عثمان: قد أذنتُ لهم جيمعاً [1].

الشمس عند رأسه، والقمر عند رجليه:

وحدث محمد بن الضحاك بن عثمان الحزامي وغيره أن ابن أبي عتيق وفد على الملك بن مروان فلقي حاجبه فسأله أن يستأذن له عليه، فسأله الحاجب ما نزعه؟ فذكر ديناً قد مسّه، فاستأذن له، فأمر عبد الملك بإدخاله، فأدخله وعند رأس عبد الملك ورجليه جاريتان وضيئتان، فسلّم وجلس فقال له عبد الملك: ما حاجتك؟ قال: مالي حاجة إليك قال: ألم يذكر لي الحاجب أنك شكوت إليه ديناً عليك وسألتَه ذِكرَ ذلك لي؟ قال: ما فعلتُ وما علَّي دَين وإني لأيسُر منك قال: انصرف راشداً فقام ودعا عبدُ الملك الحاجبَ فقال له: ألم تذكر لي ما شكا إليك ابن أبي عَتيق من الدَّين؟ قال: بلى قال: فإنه أنكر ذلك، فخرج إليه الحاجب فقال: ألم تَشكُ إلَّي دَينك وذكرتَ أنك خرجت إلى أمير المؤمنين فيه وسألتني ذكره؟ قال له: بلى قال: فما حملك عَلى إنكار ذلك عند أمير المؤمنين؟ قال ابن أبي عَتيق: دخلت عليه وقد جلس الشمس عند رأسه، والقمر عند رجليه، ثم قال لي: كن سَألاً، والله ما كان الله ليرى هذا أبداً، فدخل الحاجب عَلى عبد الملك فأخبره خبره فضحك ووهب الجاريتين له وقضى دَينَهَ ووصَلَه وكان سببَ الأنس بينه وبين عبد الملك [2].

واخِلافاه:

وعن عمرو بن دينار عن ابن أبي عتيق أنه مرَّ به رجل ومعه كلب فقال للرجل: ما اسمك؟ قال: وَثّاب قال: فما اسم كلبك؟ قال: عمرو فقال:

(1) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، 2 /177.
(2) أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، ص 82.

واخِلافاه.

ابن أبي عتيق ونصيب وسعدى:

عن مؤرخ قال: أراد ابن أبي عتيقٍ الحج، فلقي نصيباً، فقال: هل توصي إلى سعدى بشيء؟ قال: نعم ببيتين. قال: ما هما؟ قال:

أتَصْبِرُ عَنْ سُعدَى، وَأنتَ صَبُورُ ::: وَأنتَ بحُسنِ الصّبرِ مِنكَ جَدِيرُ.
وَكِدتُ وَلَم أُخلَقْ من الطيرِ إنْ بَدا ::: سَنَا بَارِقٍ نَحْوَ الحِجَازِ أطِيرُ.

قال: فخرج ابن أبي عتيق، فوجد سعدى في مجلس لها، فقال لها: يا سعدى! معي إليك رسالة. قالت: وما هي؟ هاتها يا بن الصديق، فأنشدها البيتين، فتنفست تنفساً شديداً، فقال ابن أبي عتيق: أوه أجبته، والله، بأحسن من بيتيه، وعتق ما ملك أن لو سمعها لنعق وطار[1].

فلا إذن:

دخل على عائشة - وكانت عمّته - في مرضها الذي ماتت فيه، فقال: كيف أصبحت؟ جعلني الله فداك، قالت: أجدني ذاهبة. قال: فلا إذن.

قدّاحنا في هذه الليلة في البستان:

كانت له جارية، ولها صديق، فكان يجيء كل عشية فيصيح من الباب: اقدحوا لنا ناراً، فتخرج إليه الجارية. فخرجت الجارية مرة إلى البستان، وجاء الرجل على العادة فقال: اقدحوا لنا نارا. فصاح ابن أبي عتيق: يا هذا، قدّاحنا في هذه الليلة في البستان.

عافاك الله:

قال: بينا هو مرّة على سطحه، وجارية له تعشّيه، إذ مطرت عليه حجارة من فوق السطح، فأشرف فإذا فتىً يرمي بها ويؤذن الجارية بمجيئه. فقال له: عافاك الله. الساعة تعشّيني وتنزل إليك.

ستر الله عليك:

(1) السرّاج القارئ، مصارع العشاق، 99/1.

وقالت لـه جاريتـه يوماً: إن فلاناً القارئ - وكان يُظهر التنسك - قد قطع عليّ الطريق وآذاني ويقول لي: أنا أحبك. فقال لها: فقولي لـه: وأنا أيضاً أحبك ثم واعديه المنزل، ففعلت، وأدخلته المنزل، وكان قد واعد جماعة من أصحابه؛ ليضحكوا من الرجل. ودخلت الجارية إلى البيت الذي فيه الرجل، فدعاها، فاعتلت عليه، فوثب إليها، فاحتمالها، وضرب بها الأرض. فدخل عليه ابن أبي عتيق وأصحابه، وقد تورّكها، فخجل وقام، وقال: يا فساق، ما تجمّعكم هنا إلا لريبة. فقال ابن أبي عتيق وأصحابه: استر علينا، ستر الله عليك [1].

ما تُطعمنا إلا في كفارة يمين:

تغدّى يوماً عند عبد الله بن جعفر، في عدّة من قريش، وإذا عبد الله بن جعفر رثّ الثياب، فقال ابن أبي عتيق: أصلحك الله، ما تُطعمنا إلا في كفارة يمين.

غاق غاق وطر:

ولما بلغه قول نُصيب:

وُلدت ولم أُخلق من الطير إن بدا ::: سنا بارق نحو الحجاز أطير

قال: قل: غاق غاق وطر، أي أنك غراب، لأنه كان أسود.

سبحان الله ما تترك الهزل؟:

ولقي ابن أبي عتيق عبد الله بن عمر فقال لـه: ما تقول في إنسان هجاني، فقال لي:

أذهبت مالك غير مُترك ::: في كل مومسة وفي الخمر
ذهب الإله بما تعيش به ::: وبقيت وحدك غير ذي وفر؟

فقال: أرى أن تأخذ بالفضل وتصفح. فقال له ابن أبي عتيق: أنا، والله أرى غير ذلك. قال: وما هو؟ قال:

(1) الآبي،نثر الدر،7 /176.

أرى أن أجامعه. فقال عبد الله: سبحان الله ما تترك الهزل؟ وافترقا، ثم لقيه ابن أبي عتيق بعدما ظن أن ابن عمر قد نسي ذلك، فقال له: أتدري ما فعلت بذلك الإنسان؟ قال: أي إنسان؟ قال الذي أعلمتك أنه هجاني. قال: ما فعلت به؟ قال: كل مملوك لي فهو حر إن لم أكن قد جامعته، فأعظم ذلك ابن عمر، واضطرب. فقال له ابن أبي عتيق: امرأتي - والله - هي التي قالت الشعر وهجتني[1].

أفهمت؟:

كان ابن أبي عتيق يتعشّى، ومعه رجل من الأنصار، فوقع حجر في الدار، ووقع آخر، وثالث. فقال لجاريته: اخرجي فانظري أذنّوا للمغرب؟ فخرجت وجاءت بعد ساعة وقالت: قد أذنّوا وصلّوا. فقال له الرجل الذي كان عنده: أليس قد صلينا قبل أن ندخل؟ قال: بلى، ولكن لو لم أرسلها تسأل عن ذلك لرُجمنا إلى الغداة، أفهمت؟ قال: نعم قد فهمت.

ثم ركب بغلته وعاد:

ولما سمع قول عمر بن أبي ربيعة:

من رسولي إلى الثريا فإني ::: ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

ركب بغلته من المدينة يريد مكة، فلما بلغ قيل له: أحرم. قال: إن ذا الحاجة لا يحرم. وجاء حتى دخل على الثريا، فقال: ابن عمّك يقول: ضقت ذرعاً بهجرك والكتاب .. ثم ركب بغلته وعاد [2].

فهلاّ سفاحاً:

وجاء إليه رجل: فقال: جئتك خاطباً موّدتك. قال: فهلاّ سفاحاً فهو ألذ؟

أخذكم اللحم من بين يديّ:

(1) الآبي، نثر الدر،7 /177.
(2) الآبي، نثر الدر،7 /178.

وجلس يوماً يتغدّى، ومعه أولاده، فجعلوا يتناولون اللحم من بين يديه. فقال: يا بني، إن الله أوصى بالوالدين، فقال:{فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [الإسراء: ٢٣]، والله لأن تقولوا لي: أفّ ثلاثين مرةً أيسر عليّ من أخذكم اللحم من بين يديّ.

ألوى بحُجّتي الزامر:

وكان يخاصم القاسم بن محمد في صدقة أبي بكر ليليها معه، فوكّل القاسم عبد الرحمن ابنه بخصومته، وكانت دار يزيد بن عبد الملك تُبنى بالمدينة باللعابين الدفوف، والزمر، والصنج. فتقدّم ابن أبي عتيق يوماً من ذاك إلى القاضي، وهو في رحبة القضاء، فجعل عبد الرحمن يُخاصمه ويحتج عليه، وابن أبي عتيق نفسه وعينه في ذلك اللعب، فعلاه عبد الرحمن يومئذ. فقيل لابن أبي عتيق: ما كانت قصّتك؟ ما قُمت اليوم له، ولا قعدت، ولا احتججت عليه؟ فقال: ؟؟؟ ' ألوى بحُجّتي الزامر "[1].

يا أصحابي:

ومرّ بصبيان يلعبون، فقال: يا أصحابي، ما ذقنا عيشاً منذ فارقناكم[2].

قد أصبح فانج بنفسك:

ومن مجون عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ما حكي أن جاريته قالت له: إن فلاناً القارئ، وكان يظهر النسك، قد قطع علي الطريق وآذاني ويقول لي: أنا أحبك. فقال لها: قولي له: وأنا أحبك أيضاً، وواعديه المنزل؛ ففعلت وأدخلته المنزل؛ وكان عبد الله قد واعد جماعة من أصحابه ليضحكوا على الرجل. ودخلت الجارية إلى البيت الذي فيه الرجل، فدعاها فاعتلت عليه، فوثب إليها فاحتملها وضرب بها الأرض،

(1) ألابي، نثر الدر،7 /180.
(2) الآبي، نثر الدر،7 /181.

فدخل عليه ابن أبي عتيق وأصحابه وقد تولكها، فحجل وقام وقال: يا فساق، ما تجمعتم ها هنا إلا لريبة، فقال له ابن أبي عتيق: استر علينا ستر الله عليك. ثم لم يرتدع عن العبث بها، فشكت ذلك إلى سيدها؛ فقال لها: هيئي من الطعام طحن ليلة إلى الغداة ففعلت، ثم قال لها: عديه الليلة، فإذا جاء فقولي له: إن وظيفتي الليلة طحن هذا كله، ثم اخرجي إلى البيت واتركيه، ففعلت. فلما دخل طحنت الجارية قليلاً، ثم قالت له: أدر الرحى حتى أتفقد سيدي، فإذا نام وأمنا أن يأتينا أحد، صرت إلى ما تحب، ففعل، ومضت الجارية إلى مولاها، وأمر ابن أبي عتيق عدة من مولياته أن يتراوحن على سهر ليلتهن ويتفقدن أمر الطحن ويحثثن عليه، ففعلن وجعلن ينادين الفتى كلما كف عن الطحن: يا فلانة إن مولاك مستيقظ والساعة يعلم أنك قد كففت عن الطحن، فيقوم إليك بالعصا كعادته مع من كانت نوبتها قبلك إذا هي نامت وكفت عن الطحن. فلم يزل كلما سمع ذلك الكلام منهن اجتهد في العمل والجارية تتفقده وتقول له: استيقظ مولاي والساعة ينام فأصير إلى ما تحب وهو يطحن، حتى أصبح وفرغ القمح. فأتته الجارية بعد فراغه فقالت له: قد أصبح فانج بنفسك. فقال: أو قد فعلتها يا عدوة الله وخرج تعباً نصباً، وأعقبه ذلك مرضاً شديداً أشرف منه على الموت، وعاهد الله ألا يعود إلى كلام الجارية، فلم تر منه بعد ذلك شيئاً تكرهه[1].

من مكة للسلام عليك:

وروى الأصفهاني أن ابن أبي عتيق وابن أبي ربيعة والأحوص بن محمدٍ الأنصاري أتوا منزل جميلة واستأذنوا عليها فأذنت لهم. فلما جلسوا سألت عن عمر، فقال لها: إني قصدتك من مكة للسلام عليك، فقالت: أهل الفضل أنت. قال: وقد أحببت أن تفرغي لنا نفسك اليوم وتخلي مجلسك، قالت: أفعل. فقال لها الأحوص: أحب ألا تغني إلا بما نسألك، فقالت: ليس

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 4 /8 - 9.

المجلس لك، القوم شركاؤك، فقال: أجل. قال عمر: فإني أرى أن نجعل الخيار إليها. قال ابن أبي عتيق: وفق الله. فدعت بعود فغنت:

تمشي الهويني إذا مشت فضلاً ::: مشي النزيف المخمور في الصعد
تظل من بعد بيت جارتها ::: واضعةً كفها على الكبد
يا من لقلبٍ متيمٍ سدمٍ ::: عانٍ رهينٍ مكلم كمد
أزجره وهو غير منزجرٍ ::: عنها بطرفٍ مكحل السهد

قال راوي هذه الحكاية: فلقد سمعت للبيت زلزلةً وللدار همهمةً. فقال عمر: لله درك يا جميلة ماذا أعطيت أنت أول الغناء وآخره ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنت، فطرب القوم وصفقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحركوا رؤوسهم، وقالوا: نحن فداؤك من المكروه، ما أحسن ما غنيت وأجمل ما قلت، وأحضر الغداء فتغدى القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه، ثم دعت بأنواع الأشربة، فقال عمر: لا اشرب، وقال ابن أبي عتق مثل ذلك، فقال الأحوص: لكني أشرب، وما جزاء جميلة أن يمتنع من شرابها فقال عمر: ليس ذلك كما ظننت. فقالت جميلة: من شاء أن يحملني بنفسه ويخلط روحه بروحي فعل، ومن أبي ذلك عذرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأنس بمحادثته. قال ابن أبي عتيق: ما يحسن بنا إلا مساعدتك. فقال عمر: إني لا أكون أخسكم، افعلوا ما شئتم تجدوني سامعاً مطيعاً. فشرب القوم أجمع، فغنت بشعر ابن أبي ربيعة:

ولقد قالت لجاراتٍ لها ::: كالمها يلعبن في حجرتها
خذن عني الظل لا يتبعني ::: ومضت تسعى إلى قبتها
لم تعلق رجلاً فيما مضى ::: طفلةٌ غيداء في حلتها
لم يطش قط لها سهمٌ ومن ::: ترمه لا ينج من رميتها

فصاح عمر ثم شق جيب قميصه إلى أسفله، ثم ثاب إليه عقله فندم واعتذر وقال: لم أملك من نفسي شيئاً. وقال القوم: قد أصبنا الذي أصابك وأغمي علينا غير أننا قد فارقناك في تخريق الثياب. فدعت جميلةٌ بثيابٍ

فجعلتها على عمرٍ فقبلها ولبسها، وانصرف القوم إلى منازلهم. وكان عمر نازلاً على ابن أبي العتيق، فوجه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثوابٍ كانت معه فقبلتها جميلة، وانصرف عمر إلى مكة جذلان مسروراً [1].

من أهل ومال وملك؟:

روي عن ابن أبي عتيق أنه جاء إلى الحسن والحسين ابني علي عليه السلام وعبد الله بن جعفر وجماعة من قريش فقال لهم: إن لي حاجة إلى رجل أخشى أن يردني فيها، وإني أستعين بجاهكم وأموالكم عليه. قالوا: ذلك مبذول لك. فاجتمعوا ليوم وعدهم فيه، فمضى بهم إلى زوج لبني صاحبة قيس بن ذريح الكناني، وكانت زوجته لما طلقها قيس، وكان قيس صديق ابن أبي عتيق. فلما رآهم أعظمهم وأكبر مصيرهم إليه فقالوا: قد جئناك في حاجة لابن أبي عتيق فقال: هي مقضية كائنة ما كانت. قال ابن أبي عتيق: قد قضيتها كائنة ما كانت من أهل ومال وملك؟ قال: نعم، قال: تهب لي ولهم زوجتك لبني وتطلقها، قال: فأشهدكم أنها طالق ثلاثاً. فاستحيا القوم واعتذروا وقالوا: والله ما عرفنا حاجته، ولو علمنا أنها هذا ما سألناك إياه. وعوضه الحسن من ذلك مائة ألف درهم، ولما انقضت عدتها تزوجها قيس، فقال قيس:

جزى الرحمن أفضل ما يجازي ::: على الإحسان خيراً من صديق
فقد جربت إخواني جميعاً ::: فما ألفيت كابن أبي عتيق
سعى في جمع شملي بعد صدع ::: ورأي جرت فيه عن الطريق
وأطفأ لوعة كانت بصدري ::: أغصتني حرارتها بريقي

فقال ابن أبي عتيق: يا حبيبي، أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد إلا ظنني قواداً[2].

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 5 /46.
(2) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 2 /38.

أما تستحيي:

قال ابن أبي عتيق لأشعب: أما تستحيي - وعندك ما أرى - من أن تسأل الناس؟ قال: معي والله من لطف المسألة ما لا تطيب نفسي بتركه.

عمر بن أبي ربيع وامرأة من ربيعة:

وقال الأصمعي: كان عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق جالسين بفناء الكعبة، فمرت بهما امرأة من ربيعة، وقيل: من آل أبي سفيان، فدعا عمر بكتف، فكتب فيها:

ألما بذات الخال، فاستطلعا لنا ::: على العهد باق ودها أم تصرما
وقولا لها: إن النوى أجنبية ::: بنا وبكم، قد خفت أن تتيمما

فقال له ابن أبي عتيق: ما تريد إلى امرأة مسلمة محرمة تكتب إليها بمثل هذا؟ فقال: أترى ما سيرت في الناس من الشعر، ورب هذه البنية ما قبل منها وما دبر، ما قولت امرأة قط ما لم تقله، ولا طالعت فرج حرام قط.

هل نلت من عزة شيئًا:

وقيل لكثير عزة: هل نلت من عزة شيئاً طول مدتك؟ فقال: لا والله، إلا أنه ربما كان يشتد بي الأمر، فآخذ يدها، فأضعها على جبيني فأجد لذلك راحة.

موت عروة بن حزام:

وحكي عن ابن أبي عتيق قال: بينا أنا أسير في أرض بني عذرة، إذا أنا ببيت حرير، فدنوت منه، فإذا عجوز تمرض شاباً، وقد نهكته العلة، وبانت عليه الذلة، فسألتها عن خبره، فقالت: هذا عروة بن حزام، فدنوت منه فسمعته يقول:

من كان من أمهاتي باكياً لغدٍ ::: فاليوم إني أراني اليوم مقبوضا
تسمعيه، فإني غير سامعه ::: إذا علوت رقاب القوم معروضا

فقلت: أنت عروة بن حزام؟ قال: نعم، أنا الذي أقول:

جعلت لعراف اليمامة حكمه ::: وعراف نجد إن همما شفياني
فقالا: نعم تشفى من الداء كله ::: وقاما مع العواد يبتدران[1]

هذا البيت يحتاج إلى حاضنة؟ :

ولابن أبي عتيق عجائب ظريفة، أذكر لك منها ما يصلح ويملح؛ منها أنه سمع وهو بالمدينة قول ابن أبي ربيعة:

فما نلت منها محرماً غير أنّنا ::: كلانا من الثوب المطارف لابس

فقال: أبنا يلعب ابن أبي ربيعة؟ فأي محرم بقي؟ فركب بغلته متوجهاً إلى مكة، ودخل أنصاب الحرم، وقيل له: أحرم! قال: إن ذا الحاجة لا يحرم. فلقي ابن أبي ربيعة؛ فقال: أما زعمت أنك لم تركب محرماً قط؟ قال: بلى! قال: فما قولك: كلانا من الثوب.. البيت؟ فقال له: إني أخبرك؛ خرجت بعلة المسجد، وخرجت زينب تريده، فالتقينا فاتعدنا، فصرنا إلى بعض الشعاب، فأخذتنا السماء، فأمرت بمطرفي فسترنا الغلمان لئلا يروا بها بلة فيقولوا لها: هلا استترت بسقائف المسجد؟ فقال له ابن أبي عتيق: يا عاهر! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة؟

فإنما كان ثوابي أن أشكر:

وابن أبي عتيق الذي سمع قول ابن أبي ربيعة:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي ::: أتحبّ القتول أخت الرّباب
قلت وجدي بها كوجدك بالما ::: ء إذا ما فقدت برد الشراب
أزهقت أُمّ نوفلٍ إذ دعتها ::: مهجتي، ما لقاتلي من متاب
أبرزوها مثل المهاة تهادى ::: بين خمسٍ كواعب أتراب
وهي مكنونةٌ تحيّر منها ::: في أديم الخدَّين ماء الشباب
ثم قالوا تحبّها قلت بهراً ::: عدد الرمل والحصى والتراب
من رسولي إلى الثريّا بأني ::: ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

(1) الوشاء، الموشى، 24/1.

فلما سمع هذا البيت قال: إياي أراد وبي هتف ونوه؛ والله لا ذقت طعاماً أو أشخص إليها وأصلح بينهما.

قال مولى لبني تميم: فنهض ونهضت معه حتى خرج إلى سوق الضمرتين، فأتى قوماً من بني الديل من حنيفة يكرون النجائب، فقال: بكم تكروننـي راحلتين إلى مكة؟ قالوا: بكذا وكذا، فقلت لبعض التجار: استوضعوا شيئاً؛ فقال ابن أبي عتيق: ويحك! إن المكاس ليس من أخلاق الناس، ثم ركب واحدة وركبت الأخرى وأجد السير، فقلت: ارفق بنفسك. فقال: ويحك: أبادر حبل الوصل أن يقتضبا وما أملح الدنيا إذا تم الوصل بين عمر والثريا. فقدمنا مكة، وأتى باب الثريا، فقالت: والله ما كنت لنا زواراً. قال: أجل! ولكني جئت برسالة؛ يقول لك ابن عمك عمر: ضقت ذرعاً بهجرك والكتاب. فلامه عمر. فقال ابن أبي عتيق: إنما رأيتك مبادراً تلتمس رسولاً فخففت في حاجتك، فإنما كان ثوابي أن أشكر.

إن أجاز أهلها ذلك:

وسمع ابن أبي عتيق قول العرجي:

وما ليلةٌ عندي وإن قيل ليلة ::: ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
معادلة الاثنين عندي وبالحري ::: يكون سواءً مثلها ليلة القدر
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ::: لخادمها قومي سلي لي عن الوتر
فجاءت تقول الناس في تسع عشرة ::: ولا تعجلي عنه فإنّك في أجر

فقال: هذه أفقه من ابن شهاب، وهي حرة لله عز وجل من مالي إن أجاز أهلها ذلك.

ما تدع مزحك بحال!:

دخل على عائشة وهي مريضة، فقال: كيف أنت يا أماه؟ جعلت فداك! قالت: في الموت، قال: فلا إذاً، إنما ظننت أن في الأمر فسحةً، فضحكت

وقالت: ما تدع مزحك بحال! [1].

جيران يتشممون الأماني:

قال ابن أبي عتيق لامرأته: تمنيت أن يهدى إلينا مسلوخ، فنتخذ من الطعام لون كذا ولون كذا، فسمعته جارة له، فظنت أنه أمر بعمل ما سمعته، فانتظرت إلى وقت الطعام، ثم جاءت فقرعت الباب، وقالت: شممت رائحة قدوركم فجئت لتطعموني منها. فقال ابن أبي عتيق لامرأته: أنت طالق إن أقمنا في هذه الدار التي جيرانها يتشممون الأماني.

قصير القميص فاحش عند بيته:

وعن أبي عبيدة قال: كان الحزين الكناني قد ضرب على كل رجل من قريش درهمين في كل شهر منهم ابن أبي عتيق فجاءه لأخذ درهميه على حمار له أعجف قال: وكثير مع ابن أبي عتيق، فأمر ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين، فقال الحزين: لابن أبي عتيق: من هذا الذي معك؟ قال أبو صخر كثير بن أبي جمعة قال وكان قصيرا دميما فقال له الحزين: أتأذن لي في أن أهجوه ببيت من الشعر، قال: لعمري لا آذن لك أن تهجو جليسي، ولكني أشتري عرضه منك بدرهمين، ودعا له بهما، فأخذهما، وقال: لا بد لي من هجائه ببيت، قال: وأشتري ذلك منك بدرهمين آخرين، فدعا له بهما فأخذهما أيضا، وقال: ما أنا بتاركه حتى أهجوه، قال: وأشتري ذلك منك بدرهمين أيضا، فقال له كثير: أيذن له وما عسى أن يقول في بيت واحد قال: فأذن له ابن عتيق فقال:

(**قصير القميص فاحش عند بيته ::: يعض القراد باسته وهو قائم**)

قال: فوثب إليه كثير فلكزه فسقط عن الحمار، فخلص ابن أبي عتيق بينهما وقال لكثير: قبحك الله أتاذن له وتسفه عليه، فقال كثير: وأنا ما

(1) الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص 21.

ظننت أن يبلغ بي في بيت واحد هذا كله [1].

* * *

(1) الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1367هـ 1947م، 2 /137.